5

سورتا الفيل وقريش مقاربة نصية خطابية

د.فضل الله عبدالرزاق محمد قطران

استاذ البلاغة وعلم النص المساعد ،جامعة عمران

ملخص البحث

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، الموحى منه إليه بأقوم الكلام إلى يوم الدين، وأبلغه في العالمين، وأحكمه مع تعاقب الأيام وعلى مرّ السنين

سورتا الفيل وقريش اللتان وردتا متتابعتين نصيا في الترتيب المصحفي العثماني السائد، من السور المكية أي: التي نزلت بمكة، كما أنه عند انعام النظر كرة أو كرتين فيهما، لايخفى على ذي لبٍّ ؛ مهما كان مستواه العلمي؛ حضور الموئل المكي في مضمونهما بشكل بارز، بالإضافة إلى حضور. ولو بمستوى أدنى . لموائل أخر، فسورة الفيل تتحدث عن حادثة الهجوم على الموئل المكي ، في حين أن سورة قريش تتحدث عن مقومات حماية ورعاية الموئل المكي ، كما أن سورة الفيل تتحدث عن صنيع جيش الفيل الغازي لمكة ، بينما تتحدث سورة قريش عن الدور المناط بالعصبة القرشية الساكنة فيها، وربما أن ذلك الترابط الواضح بينهما هو ما حدا بأبي بن كعب إلى حذف البسملة التي بينهما في مصحفه، مما ينم عما بينهما من الترابطات النصية والتواشجات الخطابية، ودرءاً للالتباس يمكن اجمال دوافع الدراسة في الجوانب التالية:

- تجاور نص السورتين في الترتيب المصحفي.
- ما يظهر من تراسلهما في الموائل الخطابية وتشابهما في الجوانب الموضوعية.
- نزوع أبيّ بن كعب إلى اعتبارهما سورة واحدة.
- ما تتضمنه السورتان من تشكيلات خطابية تستدعي التوقف لديها.

كل ذلك ما أوحى إلى الباحث بأهمية التوافر على دراسة السورتين؛ بغية التماس ما بينهما من التعالقات النصية والتراسلات الخطابية، مؤثرًا انتحاء المنهج النصي الخطابي في مقاربة نص السورتين، لما يسعفنا به ذلك المنهج من الوقوف على التعالقات اللغوية البارزة في نص السورتين، والتماس الصلات الدلالية الكامنة في هذين النصين، وكذا مقاربة التواشجات التداولية المحفة بنصهما، وهذه الجوانب تمثل أهداف الدراسة التي تسعى إلى التماسها والاهتداء إلى حيثياتها في نصي تينكم السورتين، فعقدت لذلك هذه الدراسة مستهلا لها بإعطاء نبذة مقتضبة عن المنهج، تذكّر المتخصص، وترشد من ليس من ذوي التخصص، ثم أوردت لمحة عن الحيثيات التي ستنطلق منها الدراسة إزاء النص القرآني في مقاربة السورتين، ومن ثم جعلت صلب الدراسة في ثلاثة أجزاء؛ خصص الأول منها للإطار النصي، استهلته الدراسة بالتماس الترابطات السبكية بين السورتين التي تتصل بالمستوى اللفظي، ثم شفعت باستظهار التعالقات الحبكية بينهما التي تعنى بالتواشجات الدلالية، وأفرد الجزء

الثاني للإطار الخطابي بغية مقاربة تراسلات البنى الخطابية القائمة بين السورتين، من خلال المحور المكاني الذي خصص له الجزء الأول من الإطار، والمحور الزماني الذي أفرد له الجزء الثاني، ومحور الأطراف الخطابية الذي كان تناوله في الجزء الثالث، ليختص الجزء الثالث من الدراسة بإطار التلقي ، منطلقا من توزيع جيل التلقي إلى ثلاثة أصناف، وفقا لما تمليه أنساق التلقي التي تشكلت من خلال مضامين السورتين، مع الإشارة المقتضبة إلى موقع السورتين، لترسو بعدئذٍ على الخاتمة.

وقد خلصت الدراسة إلى تواشج السورتين في تلك المحاور البحثية، ولاسيما في المحور الحبكي وفي محور الأطراف الخطابية، مع استلهام الخريطة الجغرافية التي تشكلت من خلال نص السورتين، واستقراء المعادلات التي ترسم تموضع الأطراف الخطابية إزاء بعضها على ضوء مضامين السورتين، وطبيعة الأدوار المناطة بكل طرف من تلك الأطراف الخطابية، وصولا إلى تفاوت القيم المستقاة بين أصناف جيل التلقي التي تبلورت من خلال نص السورتين.

النص والخطاب :

ساد حقول الدرس اللغوي كثير من الجدل والتداول حول مصطلحي النص والخطاب، وجدلية العلاقة بين هذين المصطلحين، وقد اختلفت تعريفات الدارسين لهذين المصطلحين باختلاف زاوية النظر التي أطلوا من خلالها على ماصدق ذلك المصطلح، وباختلاف تقديراتهم لجوانب المحددات النصية، وتفاوت تقديراتهم للموجهات الخطابية(□)، فمنهم من جعل الخطاب مرادفا لعنصر اللغة لدى دي سوسير في ثنائية اللغة والكلام، وجعل النص منطبقا على عنصر الكلام لديه(بر)، في حين توسع مفهوم الخطاب لدى آخرين، حين رأوا بأنه "عبارة عن وحدات لغوية طبيعية منضدة متسقة منسجمة، ونعنى بالتنضيد ما يضمن العلاقة بين أجزاء النص والخطاب، مثل أدوات العطف وغيرها من الروابط، وبالتنسيق ما يحتوي أنواع العلائق بين الكلمات المعجمية ، وبالانسجام ما يكون من علاقة بين عالم النص وعالم الواقع"(تر)، وتستقر الدراسة لدى "القول بأن الخطاب نتاج لغوي في موقف تواصلي لا ينفصل عن لحظة الانتاج والتلقي، أي لا ينفك عن قصديته وإخباريته"(ير)، مما يجعله يمثل حسب تعبير أحد الدارسين "تقاطعا بين اللغة والفكر والتأريخ"(سم)، أما إزاء النص فلعل أقرب التعريفات إلى روح الدراسة ما ينزع إلى أن النص عبارة عن تتابع لغوي متماسك ذي وظيفة تواصلية ناتج عما أطلق عليه مبدءا الحوار والدمج اللغوي(شم).

أما جدلية العلاقة بين المصطلحين فمن الدارسين من خصص النص للمكتوب وخص الخطاب بالمنطوق(له)، ومنهم من ارتأى أن النص خاصٌ بالمرقون، في حين أن الخطاب شامل له وللمنطوق(□)، وفريق ثالث يذهب إلى عدم

---

[1] ينظر نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب ، 23.

[2] ينظر منقور عبدالجليل ، علم الدلالة أصوله مباحثه في التراث العربي، 198.

[3] محمد مفتاح، التشابه والاختلاف، 35.

[4] فضل الله قطران، سمات البنى الخطابية في القرآن الكريم في ضوء علم لغة النص، اطروحة دكتوراه، 2013م، 13.

[5] يحيى بن الوليد ، مقال عنف الخطاب الشعري ، دورية جذور ، العدد 25، شعبان 1428ه/أغسطس 2007م، 110.

[6] ينظر زتسيسلاف واورزيناك، مدخل إلى علم النص، ت: سعيد البحيري، 39.

[7] ينظر الأزهر الزناد، نسيج النص، 15 - 16.

[8] ينظر احمد مداس، لسانيات النص، 11.

التفريق بينهما(□)، بيد أنه من خلال التمحيص العميق للآراء السائدة في ذلك يتجلى أن التفرقة بينهما إنما هي تفرقة إجرائية، وذلك بغية استكناه الجوانب المتعلقة بكل مصطلح منهما بمعزل عن الآخر، أما في واقع التطبيق فأي منهما لا ينفصل عن الآخر، على غرار صنيع اللغويين القدامى بثنائية اللفظ والمعنى، حين عمدوا للتمييز بينهما في مقارباتهم التنظيرية، مع ادراكهم بعدم انفصال أحدهما عن الآخر في الوجود الاستعمالي، وكذلك النص. بكونه منتجا لغويا . لا يمكن له الوجود ، والخروج من سكونه لممارسة جدوى نصيته، دون المثول في موقف خطابي يشخص فيه منتج ومتلق وملابسات خطابية، كما أن الخطاب لا ينفك في ماهيته عن الجمع بين المكتوب والملفوظ لغة، والاشتغال بالتواصل غاية، وصنع أنماطه اللغوية الخاصة إبداعا، كما أن له دوافع اجتماعية ونفسية لها ارتباطات بصناعة الدلالة(بر).

معايير النصية:

تعنى مقولات الدرس النصي بمقاربة الترابطات النصية القائمة بين وحدات النص، التي تتحقق من خلالها للنص نصيته، مما شكل قفزة بالدرس اللغوي إلى ما يطلق عليه نحو النص، بعد أن ظل منحصرا في مجمله في حدود الجملة، ومقتصرا على نحو الجملة، مما حدا برواد الدرس النصي إلى الاسهاب في الحديث عن عوامل تلك النصية، والاستفاضة في تلك المعايير، إلا أن أبرز ما شاع في حقول الدرس النصي هي المعايير التي ارتآها ديبوجراند المتمثلة في السبك والحبك والقصدية والمقبولية والمقامية والاخبارية والتناص(تر)، وهذه المعايير على تعددها إلا انها تمحورت في الجانب اللفظي . السبك . وفي الجانب الدلالي . الحبك . وفي الجانب التواصلي . بقية المعايير باعتبار القصدية والمقبولية يتصلان بمستعمل النص سواء أكان منتجا أو متلقيا، والاخبارية والموقفية والتناص يتصلن بالسياق الخطابي المحف بالنص. وانطلاقا من ذلك ستنزع الدراسة إلى جعل الجوانب المتعلقة بالجانبين اللفظي والدلالي في اطار المحور النصي، والتطرق للجوانب المتعلقة بالجانب التواصلي في إطار عناصر المحور الخطابي، مع الأخذ بالنظر في تفريع عناوين الدراسة مدى حضور تلك المحاور في نص السورتين محل الدراسة.

النص/الخطاب القرآني:

إذا كان ثمة مندوحة للتفريق بين مصطلحي النص/الخطاب في اطارهما اللغوي العام، بيد أن تلك المندوحة تنتفي حيال البيان القرآني، بكون المصطلحين مترادفين إزاءه، ليس لقداسته المنبثقة من قداسة المتكلم به سبحانه وتعالى فحسب، بل كذلك لظهور المصاحبات النطقية في المصحف المرقون، ولكونه رسالة نزلت للتطبيق والتمثل وليس للدراسة فقط، ولأن التفرقة التي نزع إليها الدارسون إزاء المصطلحين، كانت بغية التفريق بين المنتج اللغوي وبين موقف انتاجه، وذلك منتف بالنسبة للبيان القرآني لأزليته وأن انتاجه لم يكن في حادث تنزله، بيد أن ذلك لا يعني إلغاء حيثياته الخطابية، لأن المتكلم به يحيط علما بكل ما سيطرأ من حوادث خطابية سواء في بيئته التنزيلية الأولى، أو في بيئات التلقي اللاحقة.

ومعلوم أن تنزل النص القرآني كان منجّما في مناسبات خطابية متفرقة، بينما ورد إلينا منضدا نصيا في الترتيب المصحفي السائد، وذلك ينم عن أن ذينكم الترتيبين لم يكونا اعتباطًا، أو ارتجالاً عفويًا، فكلاهما يحمل

---

[1] ينظر بول ريكور، نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى، 54، وينظر محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، 8 - 9.

[2] ينظر أحمد مداس ، لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، 20.

[3] ينظر محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، 89.

نكاتًا وأسرارًا تتأبى على الاهمال أو التغافل، وتدعو لمقاربتهما واستكناه ما أودع فيهما من ودائع مضامينية، وغير خاف على المطلع أن حوادث التنزيل لم ترد في كل آيات النص القرآني أو في سوره كافة، فكثير من وحداته لم ترد لها قصة نزول، بيد أنه ثبت لها تأريخ نزول، وبذا فيعتبر واقع جيل التلقي في ذلكم التأريخ يمثل واقع التنزيل لتلكم الوحدات التي لم يثبت لها حادثة بعينها، وستصدر الدراسة عن الترتيب التنزيلي الذي اورده الصعيدي([1])، كونه من أبرز ما ثبت في ذلكم الصعيد.

وستنحو الدراسة المنحى الذي يتواءم مع خصوصية النص من المقولات النصية الخطابية ، بما يساعد على استكناه مكونات نص السورتين . محل الدراسة . وصولا الى مقاربة مقاصد المتكلم سبحانه وتعالى فيهما، صدورا من كون البيان القرآني نصا ولكنه ليس كأي نص، ومن كونه خطابا وإن لم يكن كأي خطاب، نصا؛ صدورا عن الكلام المرقون الموجود بين دفتي المصحف، الذي سوغ لوسمه بـ (الكتاب)، وخطابا؛ انبثاقا من كونه كلام الله المتنزل على رسوله الكريم ليبلغه لأجيال التلقي المتعاقبة، ويواجه سياقا خطابيا منفتحا بشكل مطرد إلى آخر بيئات التلقي البشرية، إضافة إلى النكهة الخطابية للدلالة الإقرائية التي يشي بها وسمه بـ (القرآن)، بيد أن خصوصيته تلك . نصا وخطابا . لا تعني عصيانه عن الدراسة والفهم، وإنما على العكس من ذلك، فهي خصوصية تدعو الى التوافر عليه بالبحث والدراسة، وتحفز على مقاربته لاستكناه وجوه إعجازه المتعددة، كونه معجزا في نظمه، ميسورا في فهمه.

كما أن خصوصيته المتمثلة في اطراد سياقه الخطابي وكونه يخاطب أجيال التلقي المتعاقبة، ويواجه سياقا خطابيا مطردا، فذلك أدعى لاستمرار مقارباته مع تعاقب تلك الأجيال والأطوار، والعكوف على دراسة مضامينه، لالتماس ما أودع فيه من مضامين تناسب مستوى كل جيل من أجيال التلقي، وما تضمنه من أسرار تواكب التطور الذي يكتنف كل مرحلة من مراحل سياقه الخطابي المطرد، كون أطوار العقل المتلقي لم تكن خافية على المتكلم سبحانه بهذا البيان، بل إن كليهما صادر عنه تعالى، ومن إبداعه عز وجل.

ومعلوم أن الدرس النصي يبحث في نصية النص، إلا أن ذلك يعتبر معطى متحصلا في حق النص القرآني، بيد أن ما يسترعي البحث والنظر، التماس مقصد المتكلم الأجل في كلامه العزيز، بالاستعانة بمقولات الدرس النصي ومعطيات النظرية الخطابية، بما تفرضه من استحضار محفات النص الخطابية، كحوادث التنزيل ، وواقع جيل التلقي الأول لحظة التنزيل، وفي مقدمة ذلك فهم المتلقي الأول صلى الله عليه وسلم الذي أنزل عليه النص، وطبيعة واقعه لحظة تلقيه إياه، ولا يعني ذلك حشو الدراسة بالمرويات في حوادث النزول أو وقائع السيرة، وإنما سنتطرق فيها إلى ما يخدم هدف الدراسة ويساعد في مقاربة مقصد المتكلم في هاتين السورتين.

ومما دعا إلى عقد الدراسة في هاتين السورتين ما يلحظه المطالع من تقارب موضوعاتهما وتقارب موائلهما المكانية والزمانية وتداخل أطرافهما الخطابية، ولا أخفي القارئ أني بعد أن أدركت التواشجات القائمة بين السورتين، وعقدت العزم على دراستهما، وجدت أثناء البحث في تفسيرهما أن هناك رواية أُثرت عن أن الصحابي المقرئ أبي بن كعب لم يضع بينهما البسملة في مصحفه، اعتقادا منه بأنهما سورة واحدة([2])، مما زاد قناعتي بأهمية الدراسة، وجدوى التوافر على البحث في التعالقات القائمة بين هاتين السورتين، كما أن ذلك يعتبر

---

[1] ينظر عبد المتعال الصعيدي، النظم الفني في القرآن الكريم، 25 - 27.

[2] ينظر الألوسي، روح المعاني، 15/ 470.

معطى من المعطيات الخطابية التي تحف بنص السورتين من جيل التلقي الأول، بيد أن ما يعني الدراسة أكثر، من المعطيات الخطابية في مقاربة سورتي الفيل وقريش، هي قصة أصحاب الفيل، وهي قصة معروفة مشهورة، ومن يبغي الاطلاع على تفاصيل الحادثة فليرجع إلى مظانها في كتب التفسير والمرويات المأثورة([1]).

أولا : الترابطات النصية

تعنى الدراسة النصية بالترابطات التي تشكل نصية النص، وتشد وحداته ببعضها، مما يجعله كيانا واحدا قائما بذاته، وتتركز تلك العوامل . كما سبق . في الانسباك اللفظي، وفي الحبك الدلالي، وهو ما ستتوافر عليهما الدراسة بالإضافة إلى التطرق للتشاكل القائم بين الوحدات النصية ، كونه يعد مظهرا من مظاهر الترابط القائم بين نصي السورتين محل الدراسة:

السبك النصي:

وهو ما أطلق عليه بعض الدارسين الترابط الرصفي(بر)، الذي يعنى بالروابط اللفظية البارزة في البناء النصي، وتعدّ من أهمها الأدوات التي تبوء بالإعادة اللفظية للعناصر في وحدات النص، فيلحظ انسباك آيات سورة الفيل ببعضها، وتلاحمها مع الآية الأولى في السورة عبر الإعادات المترددة في آياتها للأطراف الخطابية ؛ وبالذات الإحالة إلى المولى تعالى . فاعلا . وأصحاب الفيل . مفعولا . وأطلت تلك الإعادات في الوسم اللفظي وفي المحيل الضميري، بيد أنه يلحظ تسابك الآيتين اللتين قبل الأخير في السورة (وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل) من خلال المحيل إلى الطير الأبابيل كفاعل إزاء أصحاب الفيل، بعد أن كانت هذه الطير مفعولا إزاء المولى تعالى.

وأما سورة قريش فقد كان سبك آياتها ببعضها، من خلال الاعادة اللفظية لقريش الطرف المحوري في السورة ، بيد أنه يلحظ أنه أطل في آيات السورة كلها باستثناء آية (رحلة الشتاء والصيف)، فيلحظ فيها حضور الحدث (رحلة)، مما يشي بكمون هذا الطرف في ثناياه، كون قريش الطرف القائم بذلك الحدث. ومما يعزز ذلك الانسباك في السورة ويستدعي التوقف لديه، تدعيم المحيل الشخصي الذي يحيل إلى طرف قريش المذكور في مستهل السورة، بفاء العطف خصوصا، في سبك البنية الإنشائية (فليعبدوا رب هذا البيت) بما قبلها، أي: بقوله تعالى (لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف)، وذلك ما يستدعي استحضار الحمولة النصية للوصلة المعطوف عليها بكل تفاصيلها وحيثياتها الخطابية ومفرداتها المدمجة فيها في ثنايا الوصلة المعطوفة، صدورا عما قيل بأن الفاء قد ترد "للعطف وتفيد معه معنى السببية، بالشكل الذي يجعل الفعل الخطابي المعطوف تابعا تابعيّة النتيجة للسبب، في تبعيته للفعل الخطابي المعطوف عليه"(تر)، بما يجعل ما قبله مسوغا وسببا داعيا لما بعده، فتغدو الغاية من تذليل تلك الربوع لرحلاتهم هي التوجه بالعبادة لرب هذا البيت، كما سبك هذه الوصلة الخطابية بما بعدها ؛ معززا دور المحيل الضميري؛ بالمحيل الموصولي الذي يحيل إلى المولى تعالى في (الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) بعد أن ورد ذكره في الآية السابقة (فليعبدوا رب هذا البيت)، مما يوحي بأن آيات السورة كلها مشدودة بهذه الآية ، سواء منها السابقة أو اللاحقة.

[1] ينظرالسيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، ط1، 1403هـ/ 1983م ، 8/ 627 – 630.

[2] ينظر روبرت دي بوجراند ، النص والخطاب والإجراء، 127.

[3] ينظر أحمد المتوكل ، مسائل النحو العربي في قضايا نحو الخطاب الوظيفي، 35 ـ 36 .

الحبك النصي:

وهو ما وُسم بالترابط المفهومي(□)، الذي يهتم بالروابط المفهومية القائمة بين وحدات النص، سواء منها الروابط التي لها دوال لفظية، أو التعالقات الملحوظة التي تدرك من خلال السياق النصي أو بمعاونة القرائن الأخرى، ونقف بداية مع عتبتي السورتين، مع أن تسمية سور القرآن الكريم كان . على الأرجح . تواضعيا وليس توقيفيا، بيد أن ما يسوغ لعتبتي السورتين، واعتبارهما مفتاح النص، كونهما منتزعتين من الوحدات الأولى في السورتين؛ (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) / (الفيل)، (لإيلاف قريش) / (قريش) ، ولما أن كلا اللفظين يعتبران وسما لطرف من الأطراف الخطابية التي سنتناولها في هذه المقاربة فسنؤجل التطرق لذلك إلى موطنها في الدراسة.

ونتطرق تلواً للبنيتين التركيبيتين اللتين افتتحت بهما السورتان، فنجد أنهما استهلتا ببنيتين تعبيريتين ملفتتين، فاستهلت سورة الفيل بالاستفهام التقريري (ألم تر)، ليتعانق مع بنية استفهامية . على أرجح الاقوال . أخرى (كيف فعل ربك)، معززا تينكم البنيتين ببنية استفهامية ثالثة (ألم يجعل)، مما يزيد من تعقيد التقنية الاستفهامية وغرابتها، تساوقا مع غرابة المشهد الخطابي المرقون في السورة ومواكبة خروجه عن منطق المألوف، ومن ثم يؤسس على تلك البنية سائر وحدات السورة، مجيبا بها على تلكم الاستفهامات المتداخلة المتعانقة، كون تلك الاستفهامات تتمحور حول الهيئة الحالية لأصحاب الفيل سواء أكانت معلومة تقريرا أو بالمشاهدة، لتتشكل من خلال مضمون السورة بنية استفهامية رابعة، أوشت بها السورة، وإن لم يفصح بها ظاهر النص، كما ذهب إليه عمر بن عبدالعزيز(بر)؛ وهي لماذا كان ذلك؟

فجاءت سورة قريش لتجيب على ذلك التساؤل المثار في الذهن المتلقي، مستهلة ببنية تعليلية (لإيلاف قريش)، منحبكة . وفقا لما ارتآه بعض الدارسين(تر) . بما قبلها، وجاء تكرار البنية (إيلافهم) لتبوء بالانحباك بما بعدها، مع أن الوظيفة الانحباكية التي تبوء بها العلاقة السببية تطاوع للانحباك مع السابق أو اللاحق؛ نصيا، ومع القبلي أو البعدي حدوثا(ير)، وقد ذهب بعض الدارسين إلى أن هذه البنية التعليلية جاءت لبيان غرض ما ورد في سورة الفيل، وتوضيح الهدف من وراء ذلك(سم)، وهو ما يعتبر رابطا حبكيا لسورة قريش بسورة الفيل، كون هذه العلاقة من ضمن العلاقات التي تقوم . حين تكون ملحوظة . "بين مسبب سابق وسبب لاحق دائما"(شم)؛ أي: أن ما فعله ربك بأصحاب الفيل كان لإيلاف قريش، مما يقيم الروابط بين البنيتين الإسناديتين في الآيتين اللتين في مستهل السورتين؛ (فعل، لإيلاف)، ومعلوم أن لفظ الايلاف متأرجح بين معاني الإلف والعادة(له)، أو التأليف والتقريب(□)، أو التآلف والتوحد(□)، وهو ما يشحن البنية التعليلية؛ صدورا عن أنها منحبكة مع سورة الفيل؛

---

1 ينظر ديبوجراند ، النص والخطاب والإجراء، 171.

2 ينظر السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، 8/ 636.

3 ينظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 20/ 199. وينظرمكي بن أبي طالب القيسي، مشكل إعراب القرآن، 2/ 845.

4 ينظر فضل الله قطران، سمات البنى الخطابية في القرآن الكريم في ضوء علم لغة النص ، أطروحة دكتوراه، جامعة صنعاء ، كلية الآداب 2013م ، 299.

5 ينظر الألوسي، روح المعاني، 15/ 472.

6 ينظر تمام حسان، اجتهادات لغوية، 301.

7 ينظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 20/ 199 - 200.

8 ينظر الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مادة (ألف)، 1/ 25.

بتلك المعاني؛ أي أن ما حصل لأصحاب الفيل كان للحفاظ على ما ألفته قريش واعتادته إزاء البيت، وما يتحصل لها من خلاله من السيادة على قبائل العرب قاطبة، مما يستدرجها للاستجابة لما يعقب ذلك من قوله (فليعبدوا رب هذا البيت)، أو أن ما حصل لأصحاب الفيل كان لتأليف قريش وتقريبهم لقبول مضامين ما يتلو ذلك من قوله (فليعبدوا رب هذا البيت)، أو أنه مدعاة لتآلفهم وتوحدهم في الانصياع لمضامين هذا المطلب الانشائي، وهنا ندرك سر إيثار النص لإضافة لفظ (رب) إلى (البيت)، بعد صهره في المحيل الاشاري، بما يطل به المحيل الاشاري من أفياء خطابية تكثف حمولة النص وتثري مخزونه الإحالي.

وهناك من يذهب إلى أن معنى (إيلاف) هو العهود التي أبرمتها قريش مع الأمم الأخرى(بر)، وهو ما تتبلور صدورا عنه ، القول أن ما حدث لجند أبرهة هو لتدعيم عهود قريش مع الأمم الأخرى؛ ليستقيم لها بالتالي رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام، والجواب المتحصل من ذلك كله المطلوب منهم (فليعبدوا رب هذا البيت)، وهو ما يجعل انحباك البنية التعليلية (لإيلاف قريش إيلافهم) يسير في مسارين مزدوجين في آن واحد؛ في المسار السابق واللاحق معا؛ في المسار السابق بنية المُعلَّل، واللاحق في تتميم بنية التعليل.

ومن مواطن التحابك النصي القائم على التعالق التعليلي ما يلحظ بين الآيتين (فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)، فقد جاءت الآية الثانية لتعلل محمول الآية الأولى وتسوغ له، معضدة الدور السبكي الذي تبوء به الادوات الإحالية في الربط بين الآيتين .

وهناك من يذهب إلى أن قوله تعالى في سورة قريش (وآمنهم من خوف) تحيل دلاليا إلى مضمون سورة الفيل ، وما صنعه الله لقريش بتلك الحادثة من مجد وهيبة وعز بين العرب، في حين أن قوله تعالى: (أطعمهم من جوع) تحيل للاحتفاد الذي كانت تقدم عليه العوائل القرشية حين يصيبها الفقر ، فتخرج إلى الصحراء وتضرب على نفسها الأخبية حتى يموتوا من قبل أن يعرفوا بخلتهم(تر)، وذلك ما يصل بين السورتين معضدا انحباكهما النصي وتراسلهما الخطابي.

التشاكل النصي:

يلحظ تكرار لفظ (إيلاف) في مستهل سورة قريش، وقد تأرجحت آراء الدارسين حول المقصود باللفظ، بين معاني الإلف والتأليف والتآلف، بيد أن ملحظ التكرار، وتأسيسا على ما سبق في الحبك النصي، بأن التكرار كان لتوزيع تبعة الأدوار الربطية، فجعل الأولى متعلقة بما قبلها، والثانية متعلقة بما بعدها، كل ذلك يرجح أن الأولى تحمل معنى التأليف، كونها أكثر وجاهة مع المسبَّب، أي أن ما صنعه الله بأصحاب الفيل كان لتأليف قريش للإقبال على المطلب الانشائي اللاحق، بينما يرجح التعالق النصي بتمحيض الثانية لمعنى الإلف، لأنهم كانوا يألفون الترحال في الشتاء والصيف، وإن كانت كل المحامل لا تزال واردة، كما يلحظ التقارب اللفظي بين لفظتي (الفيل، لإيلاف)، والتواشجات القائمة بين اللفظين، على احتمالات دلالة (لإيلاف) المتعددة، فهل يعد (الفيل) مظنة من مظان تحقيق الإلف أو التأليف أو التآلف، مع أنه كان عكس ذلك إزاء أصحاب الفيل، فلم يكن أداة لكسر عاداتهم وما ألفوه فقط، أو لنفي تأليفهم وتقريبهم، أو تفريق تآلفهم واجتماعهم فحسب، وإنما نفى

---

[1] ينظر السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، 8/ 637.

[2] ينظر الألوسي، روح المعاني، 15/ 470.

[3] ينظر السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، 8/ 636.

حياتهم ونسفها بالكلية، وفي المقابل كان عاملا في تأمين حياة قريش وتقوية شوكتها وتوطيد منزلتها بين العرب، بل كان مدافعا عن البيت حين ربض رافضا السير صوب مكة لهدم البيت، في حين عكفت قريش في منازلها رافضة الخروج للدفاع عن ذلك البيت.

كما يلحظ التراسل الدلالي بين (كعصف مأكول) في سورة الفيل، مع (أطعمهم من جوع) في سورة قريش ، بما يحمله لفظ (العصف) من معنى الثمر الذاوي المتناثر الهشيم الذي تذروه الرياح، وبما تحمله من معنى اليباس والجدب، وبما تعنيه كلمة (مأكول) من معاني استهلاك القوت الغذائي وحرقه أو إهلاكه ونفاده ، وتنضيده مع لفظ (العصف) في الدلالة على عدم جدواه، في مقابل ما تحمله عبارة (أطعمهم من جوع) في سورة قريش من دلالة الإمداد والتزويد، مع استحضار الفروق الدلالية والسياقية والبنائية بين لفظتي (مأكول) ببنائها المفعولي الذي يدل على السلب المستمر، وبموقعها الذي ختمت به الآية والسورة، مع (أطعمهم) الذي استهلت به الآية ببنائه الفعلي الذي يحمل معنى المنح والتزويد المسند إلى المولى تعالى، وعند توسيع الامتداد النصي يواجهنا تراسل عموم آية (فجعلهم كعصف مأكول) بما يحمله من نفي المقوم الغذائي لفظيا، وسلب المقوم الأمني لفظيا وسياقيا، مع عموم حمولة آية (الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) التي تضمنت الأمانين في ظاهر نصها.

ويستدرجنا البعد الموضوعي والمكاني للتطرق إلى اتساق قوله تعالى في سورة قريش: (الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) أي الجانب الاقتصادي والجانب العسكري فيها، مع دعوة نبي الله إبراهيم في قوله تعالى (رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات) (البقرة 126)، حيث تضمنت الجانبين؛ وإن تغاير ترتيبهما في الموطنين؛ لكون نص سورة قريش إخبارا عن واقع متحصل، فبدأ بالجانب الغذائي كونه أظهر امتنانا وأكثر تحصيلا من خلال رحلتي الشتاء والصيف اللتين سبق ذكرهما في السورة، في حين كان الأمر في هذه الآية لا يزال أمرا مطلوبا غير متحقق، فبدأ بالأمن لأن تحقيقه سبيل لتوفير الغذاء، وعودا على بدء فتراسل الآية مع سورة قريش، يوحي بأن منح قريش تلك المنن كان استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام، وهو ما يربطهم بذلك النبي الداعي، بعد أن ربطهم بالواهب سبحانه الذي أجاب ذلك الدعاء فمنحهم تلك النعم، وهذا يطل بنبي الله إبراهيم في سياق السورة وإن بمستوى متوار عن ظاهر النص، عبر مسلكين، المسلك الاول مسلك الدعاء الذي سبق ذكره، والمسلك الثاني من خلال ما يمثله هذا النبي دينيا وتأريخيا، كونه رسول الاسلام الأقدم، وكونه المؤسس الأول للبيت وواضع لبناته الاولى، فهو الشخص الذي يلتقي فيه الأمران؛ الرسول . برسالة الاسلام . والبيت، مما يعضد التلاحم بين هذين الطرفين، ويؤكد ترابطهما.

وهذا يستدرجنا للنظر لدى تراسل هذين الموطنين النصيين مع قوله تعالى (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) (البقرة 125) ، حيث جمعت تلك التواشجات في سياق واحد، بيد أن ما يستدعي النظر غياب الذكر الصريح للجانب الاقتصادي في هذه الآية، وإيرادها (مثابة للناس) مقام ذلك الأمر، وهو ما يشي أن جعل البيت مثابة للناس ومقصدا لزياراتهم هو الذي يحقق الاكتفاء الاقتصادي للموئل المكي أو للمجتمع القرشي عموما.

ثانيا: المعطيات الخطابية:

تتمثل البنى الخطابية ؛ وفقا لمقولات التحليل الخطابي ؛ في المتكلم ؛ مقصدا ونظما، وفي المتلقي؛ حالا وفهما واستجابة، وفي السياق؛ مكانا وزمانا، وفي النص؛ لغة ودلالة([1])، ومعلوم سلفا أن هناك تفاوتا في قطعية الثبوت ودرجة القداسة بين تلك البنى الخطابية للنص القرآني، بيد أن ذلك التفاوت لا يمنع من الافادة منها في التماس مضمون النص الكريم، كونها تمثل جزءا من الإركام المعرفي، ومستوى من مستويات الفهم الذي تشكل حيال النص القرآني، وخصوصا فهم الرسول صلى الله عليه وسلم الموحى إليه بالنص، وكذلك ما يتعلق بملابسات جيل التلقي الأول الذي عاصر تنزل النص، وكان الموحى إليه به جزءا من مفرداته، وقد سبق الحديث عن أبرز التعالقات النصية التي أطلت في النص محل الدراسة، وسنعمد هنا إلى الوقوف لدى تراسل السورتين في الأطر الخطابية التي تركزت في المحاور التالية:

أ - المحيط المكاني:

معلوم أن الموئل المكاني المركزي في سورتي الفيل وقريش كان مكة المكرمة، باعتبارها كانت المقصد الذي يمم شطرها أصحاب الفيل، والموئل الذي حيل بينهم وبين الوصول إليه، كما أنه كان المظروف المكاني البارز في سورة قريش، باعتباره المكان الذي تقطنه هذه القبيلة، كما أحيل اليه في إشارة نصية واضحة، بأبرز مفرداته (فليعبدوا رب هذا البيت)، فلا مرية في حضور هذا العنصر المكاني في السورتين، ويلحظ أن سورة الفيل عرضت نموذجا من الأخطار التي حاقت بالموئل المكي، في حين عرضت سورة قريش مقومات حفظه وعوامل صيانته.

والعنصر المكاني الثاني الذي يستدعي التمحيص والرصد في السورتين هو اليمن، فكان حضوره في السورة الأولى في حمولة (أصحاب الفيل)، كونه منطلق أصحاب الفيل وموطنهم الذي صدروا منه، أما في سورة قريش فقد ورد هذا المحيط الجغرافي . على أرجح الأقوال . مطمورا في المحدد الزماني (رحلة الشتاء والصيف)؛ إذ دأبت الأجيال القرشية على التعاور بين الشام واليمن في رحلاتها ، فكانت تتوجه نحو اليمن في الشتاء، وتيمم شطر الشام في الصيف(بر)، متوخية تجنب مواسم الأمطار في هذين الموطنين، ومترصدة انصرام موسم الحصاد فيهما ووقت امتلاء الخزائن بالغلات المتحصلة عقب الموسم الزراعي، وهو ما يقرر انفتاح هذين القطرين والموئلين لسكان البلد الحرام، وتسخيرهما لتزويد ذلك البلد وسكانه ومرتاديه بالحاجات اللازمة، أي توفير الأمن الغذائي لأهله ولمرتاديه، ولاريب أن حضور المظروف المكاني في البنية النصية، يحمل معه كل حمولته الجغرافية والبشرية والتأريخية والفكرية (الايديولوجية)، فكان اليمن في سورة الفيل موئل تهديد للمحيط المكي يصدر إليه الأخطار والمهددات، في حين كان في سورة قريش موئل مدد وتزويد.

ب - الزمان:

هناك مؤشرات زمنية تضمنتها الصيغ الفعلية التي أطلت في السورتين، بيد أن دلالات هذه الصيغ لم تعدُ الدلالة الزمنية العامة للصيغ الفعلية، إلا أن هناك معطيين زمنيين بارزين في السورتين، المعطى الأول: تأريخي خارج نصي، وهو تأريخ حادثة أصحاب الفيل، والمعطى الثاني: معطى نصيا صريحا، وهو قوله تعالى في سورة قريش: (رحلة الشتاء والصيف)، فأورد النص فصلي (الشتاء والصيف) من فصول السنة، ولا يعني ذلك إهمال فصلي الربيع

[1] ينظر فضل الله قطران ، سمات البنى الخطابية في القرآن الكريم في ضوء علم لغة النص، 24.

[2] ينظر جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، 8/ 636.

والخريف، بل لأن الفصلين يعتبران رمزا لحالتي العام اللتين تكتنفانه بصورة عامة، الاخضرار والجدب، فالربيع غالبا يكون مقدمة لإزهار الصيف، والخريف مقدمة لجدب الشتاء، وهذا يعني أن إيراد النص لهذين الفصلين لا يخلو من قصد إلى تعميم النسق الزمني المراد فيه، وليس تخصيص الفعل الترحالي في هذين الفصلين فحسب، بل تعميم الحركة الانتقالية لقريش في سائر الأوقات وعلى مختلف الأحوال التي يحول عليها الحول، وهذا يطل بنا على سر إيثار النص للحامل الزمني، الذي قد يكون لما يعبر عنه من عموم الزمان، وما يتضمنه من شمولية المكان، وتقلب الأحوال.

وقد يستنتج من خلال قوله تعالى(فليعبدوا رب هذا البيت) بالإحالة الاشارية إلى البيت التي عادة ماتستخدم للإحالة الخطابية إلى العنصر الحاضر المشاهد، مما يشي بأن السورة نزلت في المرحلة المكية، أي في الموئل المكي، التي كان البيت يمثل أحد المفردات الحاضرة في سياقها التنزيلي، وهذا ما يتداعى مع استحضار أن قبلة المسلمين في تلك المرحلة كانت لا تزال المسجد الاقصى، مما يطل بأن المراد في حمولة قوله تعالى: (فليعبدوا رب هذا البيت) هو الاسلام وليس مجرد الصلاة فقط، وقد يكون في ذلك إيعاز بأن قريشا . في إطارها الجمعي . لن تسلم إلا بعد تحول القبلة إلى البيت الحرام.

كما أن عقد الحمولة الزمنية للفعل (فليعبدوا) في دلالته على الزمن المستقبلي، وعقدها مع الدلالة الماضية في الفعلين (أطعمهم، وآمنهم)، تشي بأن فضله تعالى عليهم يدعوهم لعبادته ، بيد أن ذلك يحمل في ثناياه عدم الربط بين الجانبين، كون فضله عليهم سابقا، ومطالبته إياهم بالعبادة في زمن لاحق، ومما يؤيد ذلك المحمل قوله تعالى (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) (البقرة 126)، فأعقب تعالى على دعاء إبراهيم عليه السلام عاطفا عليه بما أسماه ابن عاشور بعطف التلقين([1])، بتكفله تعالى بالأمن العسكري والغذائي لذوي الكفر من أهل المجتمع المكي، وليس ذوي الإيمان منهم فحسب.

ج - الأطراف الخطابية:

تعتبر الأطراف الخطابية مقوما أساسيا من مقومات المكون الخطابي، فتحتل حيزا حضوريا فيه لا يمكن تجاوزه أو إغفاله، يتمثل فيما يناط بها من أدوار في الحدث الخطابي، الذي تبرزه الحاملات اللفظية في البناء النصي، سواء منها البنى العَلَمية أو الإحالية، وانطلاقا من ذلك لم يكن هناك بدٌّ من التطرق إلى العناصر الإحالية ضمن الأطراف الخطابية، لما أنها تمثل "جملة الذوات التي تكون العناصر الأساسية في عالم الخطاب"(بر)، وخصوصا حين ترد في نص/خطاب ينشد التطبيق.

طرف المتكلم سبحانه والأطراف المتصلة به

يلحظ بداية تركز حضور المولى تعالى في سورة الفيل . إلى جانب كونه المتكلم . في كونه فاعلا؛ أي: فاعل العقاب لأصحاب الفيل المعتدين على البيت (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ... فجعلهم كعصف مأكول)، أما في سورة قريش فيتمثل حضور المولى تعالى في المفعولية ثم الفاعلية، المفعولية؛ معبودا من قبل قريش؛ جيران البيت وسدنته، في قوله تعالى (فليعبدوا رب هذا

[1] ينظر محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، 1/ 716.

[2] الأزهر الزناد ، نسيج النص ، 116.

البيت)، استحقاقا من خلال ما سبق من فاعليته في سورة الفيل، وحضوره فيما سبق من سورة قريش، بقرينة مجيئ هذه الوصلة النصية مسبوكة بما قبلها بحرف الفاء، بالإضافة إلى تأكيد ذلك الحضور بفاعليته التالية إزاءهم في (الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)، وعند قراءة مسار ذلكم الحضور في السورتين، نجد أنه بدأ بالفاعلية في الشاهد العملي، ثم أعقبه بالمفعولية أي بما يستحقه ذلك الفاعل من فئة التلقي، ليختتم بتقرير قاعدة نظرية لتلك الفاعلية مستخلصة مما سبق من البرهان العملي، وما يشاهد من الواقع المعاش.

وعند مقارنة ملاصقات لفظ (رب) في السورتين؛ أي في سورة الفيل في قوله (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل)، وفي سورة قريش في قوله (فليعبدوا رب هذا البيت)، يظهر التحابك بين تلكم الأطراف، ومخالفة التوقع إزاءها، ففي سورة الفيل التي تركزت حول دفاع الله عن البيت، جاءت إضافة لفظ (الرب) الى ضمير الرسول الكريم، وغير خاف ما في ذلك من الوحي بأنه فعل بهم ذلك في حمايته للبيت تهيئة لرسالة النبي الكريم، كما أن ذلك يحشد تلك القصة التي شاهدها جيل قريش الأول في تدعيم نبوته صلى الله عليه وسلم، كما أن نظم الآية (فعل ربك بأصحاب الفيل) يجهر بأن الفعلين . إهلاك أصحاب الفيل وإرسال الرسول الكريم . من صنيع طرف واحد ومن مصدر واحد.

أما في سورة قريش فقد جاء لفظ الرب مضافا إلى البيت: (رب هذا البيت)، أي: الذي حماه من أصحاب الفيل حين تخليتم أنتم يامعشر قريش عن حمايته، وذلك بهدف حث قريش وتحفيزها إلى امتثال المطلب الذي انتظمته هذه الوصلة الخطابية؛ (فليعبدوا رب هذا البيت)، أي: عبادة الله، وما يقتضيه ذلك من الإيمان بالرسول الذي بلغها ذلك التكليف، وإن آثر عليه لفظ (البيت) كونه أقرب إلى النفوس القرشية، بالإضافة إلى ما في ذلك من حث قريش على توظيف المكانة التي نالوها بهذا البيت، في عبادة رب هذا البيت.

ولا يخفى ما في هذا التحابك في الملاصقات للفظ الرب بين السورتين، من الوحي بأن الجانبين الملاصقين . الرسول والبيت . يمثلان جهة واحدة ملتحمة بالرب تعالى، كما أن حضور الطرفين في سورة الفيل؛ الرسول باللفظ ، والبيت في الفعل ، يدعم ذلك التلاحم بين الجانبين، ويلحظ أن حضور البيت في سورة الفيل الذي كان بالفعل والحدث ، يدعم أو يحشد بدلالاته في مضمون موطن حضوره اللفظي؛ أي في سورة قريش (فليعبدوا رب هذا البيت)، وعند قراءة مسار الأطراف وحضورها الظاهر أو الكامن في كلتا السورتين، نجد أن تلكم الأطراف بمهامها الوظيفية في السورة مرصودة لتصب في خدمة الركيزة الأساسية؛ ألا وهي قوله تعالى (فليعبدوا رب هذا البيت) التي تمثل الغاية من البيت، ومهمة الرسول ، وواجب قريش ، كما هو واجب غيرهم من العباد.

أما مغزى إيثار المحيل الإشاري في (رب هذا البيت)، وتوسطه بين البنيتين (رب ، البيت)، للربط بين الرب؛ المعبود الغيبي؛ والبيت الذي يُتوجه إليه في عبادة ذلك الرب تعالى، الذي يوجد بين ظهراني قريش، وقد جاء التعبير عنه بالمحيل الاشاري، لما يحمله هذا المحيل من معاني الحضور والقرب والاحتكاك والمشاهدة، مما يوعز بضرورة حضوره في المعادلة الخطابية ومنحه حيزا ووزنا معتبرا في توجيه مقومات الموازنة الغذائية وبلورة محددات المعادلة الامنية وإضاءاتهما وترشيدهما، اللتين أوردهما النص عقب ذلك، وسبكهما به عبر المحيل الموصولي الذي يحيل إلى المعبود رب هذا البيت، متعاضدا مع الإحالة الضمائرية التي تحيل إليه تعالى فاعلا في تحقيق هاتين المعادلتين، وهنا تتبلور خريطة نصية للأطراف المدمجة في الآيتين ، بكونه تعالى وسيطا بين البيت . بكونه رب البيت . وبين ما تتمتع به قريش من الأمنين الاقتصادي والعسكري . بكونه الفاعل المحقق لذلك، وهو ما يقضي بأن تحقق خارطة الأمن

الغذائي وحيثيات الأمن العسكري لقريش؛ إنسانا وجغرافية؛ يكون على ضوء موقفهم إزاء مطلب العبادة، ولذلك حدث فتح مكة ونالهم ما نالهم فيه من الفزع، وإن كان بشكل محدود، إلا أنه كان متعارضا مع مقتضى (وآمنهم من خوف)، وذلك لأنه كان بغية حملهم على تمثل مضمون التكليف الذي كانوا مفرطين فيه (فليعبدوا رب هذا البيت)، إذ إن الخارطة السابقة التي توضح طبيعة فعل المولى نحوهم، تفضي إلى خريطة أخرى توضح طبيعة الفعل القرشي الذي تشكل خصوصا بعد تحول القبلة إلى البيت، بأن تفرض عليهم التوجه نحو البيت كي يصلوا إليه تعالى ويستحقوا رعايته، فالنص فرض عليهم القصد في احتفائهم بالبيت أو في توجههم نحوه. كما هو بعد تحول القبلة إليه . إلى الارتباط بالسماء، أما الجوانب الأرضية فقد تكفل المولى بتحصيلها لهم، كما أن إيثار المحيل الإشاري في التعبير عن البيت يعطي إضاءة بأنه مناط المكانة التي حظيت بها قريش والمزية التي نالتها عند المولى تعالى، ثمّ في أرضه وبين خلقه، وهنا ندرك سر إيثار النص للفظ (البيت) في (فليعبدوا رب هذا البيت)، على الضمير المحيل إليهم (ربهم)، وذلك لاستدعاء كل ما تحصل عليه قريش من وراء هذا البيت، وتوظيفه في تحفيزهم على تنفيذ ذلك التوجيه الانشائي، وهناك ملمح آخر وراء هذا التعبير، يتجلى من خلال استدعاء مضمون قوله تعالى (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس) (البقرة 125)، فربط البيت هنا في الآية بجميع الناس، وليس بقريش فقط، مما يلوح بأن من دواعي إيثار لفظ البيت في سورة قريش، لئلا يفهم بأن أمر العبادة خاص بقريش وحدها، وإن جاء موجها إليها في السورة (فليعبدوا)، لكن ارتباطه بالبيت . بكونه مثابة عامة لكل الناس . يحافظ على نصيبهم في ذلك المطلب التكليفي.

كما أن حضور المولى تعالى في بنية المحيل الموصولي في قوله تعالى (الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)، أي: في التعبير عن البنية الاقتصادية والمنظومة العسكرية لقريش أو لمكة، يشي بأن ذلك ليس منبتا عما قبله أومستقلا عنه، كون المحيل الموصولي يعتبر محيلا نصيا([1])، إذ جاء للتعريف بالمعبود الذي يستحق عبادتكم التي أمرتم بها، كونه ربّ البيت الذي منحكم هذه المزية وتلكم المكانة، لا لذواتكم، وإنما لعبادتكم إياه، وقيامكم على بيته واستيطانكم بجواره وحضوره بينكم، وقد مزج هذا الانسباك النصي الجوانب المادية سواء أكانت اقتصادية أم عسكرية بالقيم الدينية وشبّك بينها في منظومة واحدة بشكل لا ينفصل بعضها عن بعض.

ومما يلفت النظر في النص: الإحالة إلى البيت بالمحيل الاشاري (هذا البيت) بما يشي به من دلالات المشاهدة والحضور الخطابي الملموس، في حين أعقب ذلك بالإحالة الى المولى تعالى بالمحيل الموصولي (فليعبدوا رب ....الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)، الذي يغلب عليه الطابع النصي، ولا أقصد بذلك دليل غياب ، وإنما حضور لا يمكن إدراكه إلا من خلال النص.

أطراف التلقي في الخطاب:

أما الأطراف الأخرى المدمجة في السورتين، فيلحظ حضور طرفين خطابيين في كلتا السورتين، وإن تعاورت مكانتاهما في ذلكم الحضور بين المحورية والهامشية، فلئن كان الطرف المحوري في سورة الفيل هو جيش الفيل بقيادة أبرهة الحبشي الذي قدم من اليمن، فقد كان لهذا الطرف حضور أيضا في سورة قريش، وإن كان هامشيا، فجاء مختزلا في المظروف المكاني الذي كان بدوره كما سبق مختزلا في المحدد الزماني (رحلة الشتاء والصيف)

---

[1] ينظر فضل الله قطران، سمات البنى الخطابية في القرآن الكريم في ضوء علم لغة النص، أطروحة دكتوراه، جامعة صنعاء ، كلية الآداب، 2013م، 34.

اللتين كانتا إلى اليمن و الشام ، فيلحظ أن الطرف الأول كان أهل اليمن إذا جازت التسمية لهم بذلك، وقد جاءت تسميتهم في سورة الفيل بلفظ (أصحاب الفيل) بما تعنيه تجربة استخدام الفيل في الحرب، كونها تقنية حبشية، وقائد جيش الفيل أيضا كان حبشيا، بينما جاءت الإشارة اليهم في سورة قريش في لفظ (رحلة الشتاء) ؛ أي لقريش، يعني بأنها موئل لرحلات قريش، وما يعنيه ذلك عن طبيعة حضور هذا الطرف، في إطار السورتين ، كونه مندرجا ضمن فلك غيره، ومنضويا ضمن بوتقة أطراف أخر، حيث جاء تابعا لمركز الحبشة في سورة الفيل . أصحاب الفيل . وموئلا لقريش في سورة قريش . رحلة الشتاء .

أما الطرف البشري الثاني الذي أطل في المشهد الخطابي الذي رسمته السورتان، فهو طرف قريش، حيث كان مطويا في أعطاف سورة الفيل، كونهم الشهود الحاضرين لتلك المشاهد، التي دارت بين الأطراف المحورية في السورة، وقد كان طرفا مُدافَعا عنه فيها، بيد أن سورة قريش جاءت لتخرجهم من ذلك المئرز المكاني الذي كانوا يتوارون فيه في سورة الفيل، لتجعل منهم طرفا محوريا في هذه السورة، بل سنحت لذلك الطرف أن يتطور ويرتقى بدرجة حضوره فيها، الى أن أضحى عتبة نصها، مما أفضى ذلك الحضور الطاغي بصداه إلى الارتداد الى سورة الفيل لتلمس حضوره فيها على الرغم من هامشيته، واستدعاء موقعه فيها، وقد تظافرت السورتان في عرض تجربتين لهذا الطرف، محددتين طبيعة أدواره في كل منهما ؛ الأولى تجربة الأخطار المحدقة التي تبلور دوره فيها في الانكفاء والسلبية، والثانية تجربة تحقيق الأمان الاقتصادي والعسكري المتواثقة بعبادة رب البيت، التي منحت قريشا السياحة في ربوع الشام واليمن، إلا أنه يلحظ أن حضور هذا الطرف في سورة قريش كان مترددا بين الفاعلية والمفعولية، الفاعلية في العبادة، والمفعولية إزاء عنصري الغذاء والامان.

ومما يرجح قصد النص إلى حصر حضور هذا الطرف في الجانبين الغذائي والعسكري في المفعولية، طيُّه لهذا الطرف في قوله تعالى (رحلة الشتاء والصيف) التي كان سيتمثل دوره فيها فيما لو قدر له الحضور في ظاهر النص في الفاعلية، فاقتصر فيها بذكر الحدث المجرد، قصدا لطي دور قريش كفاعل فيها، وحصر دورهم إزاء المنظومتين الغذائية والعسكرية في المفعولية، كما أن السياق ألقى بظلاله في تقليص فاعلية قريش في هذه الرحلات، حين ساقها في مساق الامتنان عليهم بتلك الرحلات من المولى تعالى الذي منحهم إياها ويسرها لهم، من خلال ورودها بين وصلتين نصيتين مشحونتين بدلالة الامتنان عليهم، صراحة؛ كما هي السابقة لها (لإيلاف قريش إيلافهم) ، وتلميحا ؛ كما هي اللاحقة التي جاءت مسبوكة بها بسابك الفاء الذي يشي بأن ما قبله سبب في ما بعده، تطلب منهم عبادة المنعم عليهم بتلك السياحة (فليعبدوا رب هذا البيت).

وهذا يحدو بنا إلى الوقوف لدى موقع قريش ومكانتها وفقا لمعطيات النص، وقبل ذلك نقف مليا لتحديد هوية هذا الطرف الخطابي وفقا لما رسمته سورة قريش، فهل كان هذا الطرف مؤمنا أم مشركا في السورة؟ ظاهر لفظ السورة يهمس بأنه كان غير مؤمن بدليل ما طلبته منه السورة (فليعبدوا رب هذا البيت) كون الطلب عادة يتوجه لمن هو متخلف عنه، يؤيد ذلك مثوله في السورة في محيلات الغياب التي . غالبا . ما يرد به طرف المشركين في النص القرآني( )، بيد أن عدم حتمية ذلك يجعل النص مفتوحا على المحملين، سيما وقد جاء أسلوب النص في مواطن أخر يطلب الإيمان . مثلا . من معشر المؤمنين(بر)، أي: تقوية وتجديدا لا إيجادا، وعودا على بدء

[1] ينظر فضل الله قطران، سمات البنى الخطابية في القرآن الكريم في ضوء علم لغة النص، 524.

[2] كما في قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته) (الحديد 28).

بالوقوف لدى موقع قريش في النص، فندرك بداية أن النص حين ساق المنن التي أنعم الله بها على قريش في الغذاء والأمن، أوردها كدافع لتحفيزهم على عبادة رب البيت، دون أن يربط حصول تلك النعم بتمثلهم ذلك الأمر، كما سبقت الاشارة إليه في البعد الزمني، وللإجابة على السؤال؛ ما الذي ربط النص بينه وبين ذلك التوجيه الانشائي؟ نستحضر المواطن النصية الأخرى التي تطرقت لموقع قريش إزاء مظروف مكة المكاني، وأقصد قوله تعالى: (وإذ ابتلى إبراهيم ربُّه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين، وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود، وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) (البقرة 124 – 126) فيلحظ أن الآيات ربطت حصول الإمامة بالعدل وعدم الظلم، في حين نفت ارتباط حصول الرزق والأمن بالإيمان، وهذان المفهومان يضفيان على سياق سورة قريش، بأن ما يتوقف على تنفيذ قريش لمطلب العبادة هو سلطانها وإمامتها للناس، الذي يطل في السورة من خلال مضمون لفظ (لإيلاف) وتكراره في الآية التي استهلت بها السورة، بالإضافة إلى معنى لفظ (قريش) وسر إيثار النص لذكره، فقيل هو من القَرْشُ الذي يعني الجمع والكسب والضم من هاهنا وهاهنا، وقيل هو من سمك القرش الذي له السلطان في البحر، وتخافه الكائنات الأخرى، وقيل لضربها في البلاد للتجارة والتكسب، وقيل من التقريش الذي هو تلمس خلة ذي الحاجة والفاقة من الحجيج، وقيل من التقرش وهو التجمع بعد التفرق ، وقيل نسبة إلى قريش بن مَخلَد بن غالب بن فهر([1])، وهذه المعاني التي اقترض الاسم منها على تعددها، إلا أنها بمجملها لا تخلو من التلويح بمعنى السلطة والمركزية، وهنا يتضح من خلال مجمل تلك المعطيات النصية توقف إمامة قريش في الناس على تمثلها بعبادة رب هذا البيت، وليس بقيامها على البيت، كما أنه من خلال نص السورتين مع آيات البقرة لم يربط المولى تكفله بالأمن الغذائي والعسكري لقريش بعبادتهم إياه تعالى، وإن جعلها محفزا وداعيا يحرضهم على ذلك، بتأييد ما ورد في سورة الفيل، مما صنعه تعالى بأصحاب الفيل، مع أن قريشا لم يكونوا يومئذٍ على مسلك العبادة المرضي عنده تعالى.

ومما يلحظ من خلال نص سورة قريش أنها عقدت ترابطا بين قريش وبين البيت؛ مكانيا وحاليا، وطلبت اكتمال منظومة ذلك الترابط؛ وجهة، بحث قريش على التوجه لعبادة رب هذا البيت، وهذا يعطي مسوغا آخرَ لتخصيص قريش بالأمر بالعبادة، ويوضح كذلك مسوغ إضافة (رب) إلى البيت، وكذلك الحمل التعبيري لورود اسم الاشارة(هذا البيت)، أي: القائم بينكم، وذلك أدعى لاستجابتهم لذلك التوجيه .

وعند الوقوف مليا لدى العلاقة القائمة بين ذينكم الطرفين الخطابيين . أصحاب الفيل وقريش . وفقا لما رسمته المحددات النصية للسورتين، يتضح أن الطرف الأول المتمثل في (أصحاب الفيل) الذي كان جلهم من أهل اليمن، كان هذا الطرف غازيا معتديا، يقود زمامهم رجل من خارج اليمن (أبرهة الحبشي)، قد قصدوا الموئل المكاني للطرف الثاني . قريش . بقصد هد مفخرة هذا الطرف ومصدر سيادتهم على العرب وعلى الأمة كافة، فحال الله بينهم وبين ما يريدون، وأرسل الطير الأبابيل لحصبهم وحصد رؤوسهم، فجعلهم كعصف مأكول، فانتهى هذا الطرف كفاعل في هذا المضمار النصي الخطابي، وكان الطرف المواجه له المتمثل في قريش منكفئا على نفسه مؤثرا الانسحاب في هذه المواجهة، وهنا ترتسم الأدوار المناطة بكل طرف منهما بناء على ما رسمته سورة الفيل؛

[1] ينظر ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 6/ 334 – 335.

الغزاة اليمنيون قصدوا البيت لهدمه وهتك حرمته، انتهى بهم المشوار الى الهلاك والفناء، وقريش . سدنة البيت . حصروا أنفسهم في بيوتهم، مقتصرين على الإنكار القلبي فنجوا وسلموا وصينت ديارهم ووقي مصدر سيادتهم ومنقبتهم.

بل يلحظ اختلاف تموضع الطرفين اللذين يمثلان عناوين السورتين في كلتا السورتين، وتعاور أدوارهما فيهما؛ ففي سورة الفيل كان الطرف الطاغي في السورة كما سبق هو أصحاب الفيل، وفي سورة قريش كان الطرف الذي احتل ذلك الحضور هو قريش، أما إزاء الأدوار؛ فإذا كان في سورة الفيل زحف أصحاب الفيل على مكة لغرض الهدم والدمار فكانت النتيجة العذاب والنكال، ففي سورة قريش كان الفعل السائد حركة قريش المنتشرة زمانا ومكانا؛ أي: في عدد من الأوقات وعدد من البلدان، ومن أبرز تلك الأطر المكانية الموطوءة لهم كانت أرض أصحاب الفيل . الطرف الطاغي في سورة الفيل . لكن ليس للهدم والخراب، وإنما للتجارة وتوفير الحاجيات الحياتية والبناء والاعمار، فكانت النتيجة تحقيق الأمن الغذائي والأمن العسكري، لقريش كما يوحي به صريح النص، ولأهل اليمن ومعهم الشام كما يفوح به فحوى (رحلة الشتاء والصيف)؛ كونها مهوى لقوافل أكبر القبائل العربية، ومما يؤكد أهمية الغرض في تحديد طبيعة ذلك الفعل أنه أطلق على فعل أصحاب الفيل في سورة الفيل بـ (كيد)، ووسم عمل قريش في سورة قريش بـ (رحلة)، وشتان بين حمولة اللفظين، إذ يتمايز اللفظان بالدرجة الأولى في الغرض والهدف، إضافة الى عدد من جوانب التمايز بينهما وفقا لما تمليه حمولتهما الدلالية في الحقول المعجمية والسياقات الاستعمالية .

فإذا قيل: إن ذلك يعني أن الطرف الخطابي الأول، أو إن هذا المحدد الخطابي عموما . أعني اليمن باعتبارهم السواد في (أصحاب الفيل) . يمثل خطرا على الطرف الخطابي الثاني . قريش . أو المظروف عموما؛ بشريًا وجغرافيًا وحرمةً، نقول له: لا ينبغي النظر إلى حمولة سورة الفيل بمفردها، فلقد جاءت سورة قريش لاستدراك ذلكم الظن، فهي وإن تمحور الحديث فيها عن قريش، لكنها قررت الأدوار المناطة بالأطراف الأخرى في معرض حديثها عن حركة ذلكم الطرف المحوري، إذ خلعت على طرف اليمن دورا منضويا ضمن منظومة الحركة القرشية، حين أناطت بقريش الخروج من عتبات مكة، ومغادرتها، بعد أن كان ذلك الدور في سابقتها مناطا بأهل اليمن، وذلك عبر رحلتي الشتاء والصيف، فرسمت السورة طبيعة العلاقات التي تحقق الأمن الاقتصادي والعسكري للموئل المكاوي بشريا وجغرافيا ومظروفا وقدسية، وذلك حين تكون أرض اليمن . ومعها الشام . موئلا مفتوحا ومنزلا ممهدا، لا مناوئا أو طاردا، يعني سيتحقق الأمن الغذائي والعسكري لمكة وحرمتها والبيت الحرام حين تقوم بين ذلك الموئل علاقة اجتذاب وانفتاح مع اليمن أرضا وإنسانا، بأن تكون اليمن . ومعها الشام . مفتوحتي الجنبات أمام قريش . بوظيفتها المناطة بها في (فليعبدوا رب هذا البيت) . لاتستنكفان عن احتضانها في أي موسم أو مع أي عارض، أي: مصدري تزود وموئلي منعة، بما يحقق الأمن الغذائي والأمن العسكري لتلك الربوع وقاطنيها وروادها، وهذا ما يشير إلى أن رخاء تلك الربوع وازدهارها . الشام واليمن . يفيض على الديار المقدسة رخاء واستقرارا ومنعة، ومن زاوية أخرى يجلو عن أن وضعهما . وخصوصا اليمن لحضوره في سورة الفيل . مرهون بطبيعة علاقته بتلك البقاع المقدسة، فحين تكون مصدر خطر وتهديد، فإنها ستحصد الهلاك والدمار، وحين تكون مصدر مدد وتزويد لتلك الربوع وقاطنيها، فإنها ستنعم بالخيرات والثمار التي تجعلها مهوى للأفئدة ومقصدا للرحلات القرشية وغيرها، وهذا كله ينفي ما شاع في بعض الأوساط من أن أمن الحرمين وسلامة أرضهما متوقف على عدم استقرار أرض

اليمن وأهلها، وإنما يثبت عكس تلك المقولة المتداولة، بأن أمن الموئلين متوقف على العلاقة الإيجابية السائدة بينهما، ويجعل أرض اليمن مصدر مدد ومنعة لقريش ولمكة والبيت الحرام.

بل يتجلى من خلال دمج مضامين السورتين بأن اليمن إن لم تكن مصدر أمن للبلد الحرام فستتحول إلى بيئة مناوئة له، وساحة تهديد ومصدر تقويض لأمنه الاقتصادي والعسكري، بتعبير آخر أن اليمن ستكون من خلال نص السورتين تابعة لمشاريع أخرى؛ سواء حبشية ـ كما ترجمتها سورة الفيل ـ أم قرشية ـ كما نقلته سورة قريش؛ حين جعلتها منضوية في إطار المنظومة القرشية الامنية والاقتصادية، وكذلك الفكرية وفقا لما يشي به الاتباع النصي والانسباك اللفظي بالفاء في قوله تعالى (رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت) على ضوء ما سبق بيانه من انضواء البعد المكاني ضمن الحمولة الخطابية لـ (رحلة الشتاء والصيف)، وإفصاح (فليعبدوا رب هذا البيت) عن البعد الفكري العقدي، إذ لا يستقيم في الغالب أن يتوفر الأمن الغذائي والمنعة العسكرية لذي عقيدة وملة إلا ممن يشاطره تلكم العقيدة وذلكم الفكر، وفي أس ذلك وأساسه العبادة، بما تقتضيه تلك العبادة من أن تكون مكة قبلة المناسك العبادية ومهوى الأنفس العابدة، وقبل ذلك كله التوجه بها للمعبود رب هذا البيت لا لأحد سواه.

ثالثا: أصناف التلقي:

سلف الذكر في الأطراف الخطابية، أن السورتين تحتويان على طرفين خطابيين، وهما يعدان من ضمن فئات التلقي، يضاف إليهم بقية الفئات التي لم يشر إليهم في النص، ولما أن مناط التلقي يختلف ـ إلى حد ما ـ عن المثول في الخطاب كطرف من أطرافه الخطابية، ترجح للدراسة فرز عنصر التلقي في مبحث خاص ، وترشح تصنيف فئات التلقي إزاء السورتين في ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: قريش؛ بكونها طرفا خطابيا مدمجا كما سبق في السورتين، وكونها جزءا من جيل التلقي الأول، ومن أجيال التلقي المطردة، ولذلك فالسورتان تحملان قيما دلالية تختص بهذا الصنف من أصناف التلقي، فهم وإن كانوا المعنيين بأمن البيت وأمن قاطنيه؛ غذائيا وعسكريا، إلا أن سورة الفيل توحي إليهم أن هناك قوة أخرى تتكفل بحماية البيت، وأن أمر البيت ليس مرهونا بهم فقط، كما أن مصيره ليس متوقفا على إمكاناتهم المنظورة، وفي الوقت نفسه فإن سورة الفيل تطمئنهم بتكفل المولى تعالى بتولي الأمن العسكري للبيت وموئله المكي، لتحفزهم ـ من ثمَّ ـ على التوافر على المطالب المدمجة في سورة قريش، وفقا لما ترشحه البنية التعليلية التي استهلت بها السورة، وقد كان المطلب الرئيس المنشود في سورة قريش هو (فليعبدوا رب هذا البيت)، ومعلوم أن التكليف بالعبادة ـ في الأصل ـ ليس خاصا بقريش، بل هو تكليف لكل أفراد التلقي كما قررته نصوص قرآنية أخر، لكن تخصيص التوجيه هنا بقريش فيه إيعاز بسلبية دورهم في حماية البيت الذي ظهر في حادثة الفيل ورسمته سورة الفيل، فأرشدهم النص إلى الواجب اللازم عليهم إزاء تلك القوة التي تتكفل برعاية البيت، كما يأتي ذلك التخصيص لقريش لبيان أهمية معطى العبادة في قولبة المعادلة التي قررتها السورة، أو السورتان بتعبير أوضح، في تحقيق الأمانين الاقتصادي والعسكري، ولذلك أعقب ذلك التوجيه بأن عزا للمعبود تعالى التكفل بتأمين الجانب الغذائي والعسكري لقريش، وللموئل القرشي، ولقاصديه كافة: (الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)، وتكفله تعالى بذلك لا يعني إعفاءهم من مسؤوليتهم إزاء ذلك، بل قد يكون تحقيقه عبرهم، كونه مقتضى التمثل بمطلب العبادة الذي أمروا به، في تذليل مناسك العبادة التي أنيطت بهم، وتوفير حاجات الحجيج وتأمين السبل التي يسلكونها إليه من كل فج عميق، وهنا ندرك تخصيص قريش بالتكليف بالعبادة، وإضافة المعبود إلى

البيت المشهود، كما أن التكليف بالعبادة ورد في النص عقب رحلتي الشتاء والصيف اللتين كانت تقوم بهما قريش، وإن كان هناك رأي منسوب لابن عباس([1]) يذهب إلى أن النص جاء ليعفي قريشا من رحلة الشتاء والصيف اللتين كانوا يعتادونهما لجلب القوت والزاد، ومن ثم جاء التوجيه المعقود بتلك الرحلات في النص بسابك الفاء (فليعبدوا رب هذا البيت)، ليوضح لهم الواجب المنوط بهم عوضا عن كد الترحال، كون ذلك المعبود هو الحقيق بذلك، بما جلبه لهم وصرفه عنهم، أي: (الذي أطعمهم من جوع)؛ بأن كفاهم مؤنة تلك الرحلات، بعد أن لم يكن لهم راحة في شتاء ولا صيف، من خلال ما فرضه على الناس من حج البيت، وإن لم يرد ذكر للحج في ظاهر النص، بيد أن المحيل الاشاري المدعوم بالمشار إليه (هذا البيت) فيه تلويح بذلك، (وآمنهم من خوف) بأن صرف أصحاب الفيل عما قصدوا إلحاقه بهم. وهذا يضيف مسوغا لتخصيص قريش في الأمر بالعبادة في السورة، لكونهم المعنيين بتلك الرحلات، كما أنهم المعنيون بالبديل عنها، ومما يشد الناظر هنا ورود لفظي (الجوع والخوف) في قوله تعالى متحدثا عن قريش (الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)، فاستكناه مضمون هذه الصيغة التركيبية مع استحضار البدائل اللفظية السائغة، يوحي بأن قريشا كانت قد لحقت بها فترات من الجوع ونوبات من الخوف، امتن الله عليهم بانتشالهم منها، وهو ما يلوح بإمكانية تكرارها إذا لم يقوموا بما أنيط بهم في النص، ليس إزاء البيت فحسب، الذي قد تدفعهم إلى القيام بواجبهم نحوه مايحصلونه من ورائه من الفائدة والمكانة، بل إزاء المعبود تعالى رب هذا البيت الذي تكفل لهم بمقومي الطعام والأمان، وهنا يطل تقاطع بعض العناصر الخطابية، أو المقامية بمعنى أدق، مع مصفوفة من العناصر المدمجة في النص؛ فيلحظ أن قوله (وآمنهم من خوف) متسق مع ما أورده النص في سورة الفيل من دفع خطر أصحاب الفيل عنهم، بيد أن هذا يتقاطع مع معطى مقامي، وهو ما حصل بين قريش وبين النبي صلى الله عليه وسلم قبل الفتح من مواجهات، الذي جعل قبائل العرب التي عاصرت أو عاصر آباؤهم حادثة الفيل، يرقبون عن كثب سير المواجهة تلك، لما يعرفونه ـ تداوليا ـ عما تتمتع به قريش وبلدها من حرمة ورعاية سماوية، فلما ختمت تلك المواجهة بفتح مكة، اندفعت تلك القبائل لاعتناق دين الاسلام طوعا، إدراكا منهم بأن تمخض تلك المواجهة بذلك الفتح دون تدخل القوة السماوية التي تدخلت مع خطر أصحاب الفيل، الذي كان لا يزال حاضرا في الأذهان، ما هو إلا إشعار بكون ذلك الدين مأذونا به من تلك القوة السماوية، وقد ألمح النص لهذا الواقع الجديد للبيئة المكاوية إنسانًا وحرمًا، من خلال ربطه سورة الفيل بسورة قريش، التي جعلها ـ في الوقت نفسه ـ مشدودة بالبؤرة المحورية (فليعبدوا رب هذا البيت) التي تعالقت بها كل وحدات السورة السابقة واللاحقة.

كما يلفت المطالع ما يتضمنه قوله تعالى: (رحلة الشتاء والصيف) من حمولة إنشائية، وإن كانت على رأي ابن عباس السابق الذكر معادلا وبديلا للتوجيه الإنشائي اللاحق بها (فليعبدوا رب هذا البيت)، إلا أن ظاهر النص يشي بإقراره قريشا في ذلك، بل حثها ـ في مستوى تال ـ أن تسعى في تحقيق ذلك، وجعله أمرا واقعا، لما في ذلك من منافع متحصلة للمجتمع القرشي والبلد الحرام، من أبرزها ؛ كما يوحي به المستوى التداولي للخطاب ؛ تحقيق الأمن الغذائي، بيد أن الأمن العسكري يطل فيها في مستوى تال من عدد من النواحي، أولا البعد التداولي الذي كان سائدا في جيل التلقي، غذائيا؛ بجلب الحاجات والمقومات الاقتصادية، وأمنيا؛ بتذليل سبل السير في الجهتين أو الزمنين، دون وجود أي عوائق أو حوائل، ثانيا: التلازم ـ على المستوى العقلي ـ القائم بين الجانبين، فلا يمكن ـ في

[1] ينظر السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، 8/ 637.

الغالب . توفر أحدهما مع انتفاء الآخر، ثالثا: الطبيعة الجغرافية للمناطق الثلاث؛ تضاريسًا وانتاجًا وسكانًا وموقعًا؛ فطبيعة أرض قريش الجبلية القاحلة . وادٍ غير ذي زرع . ما يشير إلى احتياجها إلى أرض أخرى تتكفل بتوفير حاجيات سكانها وزوارها من المواد الغذائية، وموقع مكة في مكان وسط بين الشام واليمن، يوضح تأثير موقعهما على البعد الأمني لمكة، كونهما أبرز مناطق الحزام المطوق لها، وأبرز منافذها صوب الشمال والجنوب؛ فهي في الوقت ذاته الجهات التي قد تحدق من خلالها الأخطار بالموئل المكي بكل مفرداته، بما في ذلك قاطنوه وقصّاده، وليست هذه المزايا التي منحها النص لقريش لنسبهم أو لسلالتهم، وإنما لموقعهم من البيت، الذي جعله حاضرا في المعادلة (فليعبدوا رب هذا البيت)، فتصدق حمولة النص على أي طرف يقوم مقامهم إزاء البيت الحرام.

الصنف الثاني: اليمن، ويضاف له الشام إزاء سورة قريش، والمطالب الإنشائية التي تناط بهذا الطرف من سورتي الفيل وقريش، تعظيم شأن البيت، وعدم مناوءة سدنته، والحذر من محاولة غزوه أو تهديد موئله المكي عموما مع أي جهة كانت، والانضواء في بوتقة المنظومة القرشية المنضبطة بعبادة رب هذا البيت، واستقبال رحلات الأجيال القرشية، وتزويد الموئل المكي بالحاجيات الغذائية، وعدم الصد عن سبيل البيت، والإسهام في تأمينه وتأمين سبله من أي أخطار قد تحدق به، واستنزال الخير واستزادة الرخاء بتسخيره في خدمة الموئل المكي بيتا وسكانا وزوارا .

الصنف الثالث: بقية جيل التلقي في سائر الأقطار، فقد صنعت حادثة الفيل في نفوس هذا الصنف هيبةً وعزّاً لقريش، وتعظيمًا للموئل المكي عموما، أدركه الجيل المعاصر للحادثة، وجاءت سورة الفيل لتنقل ذلك المعطى لجيل التنزيل والاجيال اللاحقة، ثم جاءت سورة قريش توجه ذلك التشكل الشعوري، فزودت هذا الصنف بمقياس في التعاطي مع قريش وتبوئهم تلك المكانة التي منحت لهم، وهو تمثلهم بعبادة رب هذا البيت، كما أن هذا الصنف معنيون بالاطمئنان على حماية هذا البيت، مع الشعور بالأمن الغذائي والعسكري حين ييممون شطره، وعدم الخوف من الفاقة أو انقطاع السبل المؤدية إليه، مع تحفيزهم على الإسهام في تحقيق كل ذلك، ومظاهرة قريش طالما كانت متمثلة بمضمون التكليف الذي خُصّت به في نص السورة، أي: عبادة رب هذا البيت.

هـ - موقع السورتين :

تتواشج السورتان مع السورة السابقة لهما نصيًّا؛ أي: سورة الهمزة، من خلال موضوعاتها الرئيسية، فيلحظ تطرق سورة الهمزة للجانب الاقتصادي في إطاره السلبي الذي كان يقوم عليه اقتصاد قريش، بينما توافرت سورة الفيل على الجانب الأمني في إطاره السلبي لقريش وموئلها المكي، فجاءت سورة قريش لمعالجة الجانبين في إطارهما الإيجابي، وأما تعالق سورة الفيل بما بعدها نصيا ؛ أي: سورة الماعون، فيتجلى في بيان دوافع الإعراض عن عبادة رب البيت التي أمرت بها قريش في سورة قريش، ومظاهر ذلكم الإعراض فرديا ومجتمعيا، وعواقبه دنيويًا وأخرويًا، من التكذيب بيوم الدين، ونهر اليتيم، وعدم العطف على المسكين، والإحجام عن إقامة عمود الإسلام وأسّ العبادات وهي شعيرة الصلاة، ومراءاة الناس بالأعمال، مع منع الماعون.

الخاتمة:

وختاماً تخلص الدراسة إلى ترابط السورتين نصيا، سواء على مستوى الترابط السبكي الرصفي، أو الترابط الحبكي أي: المفهومي، ولاسيما تراسل افتتاحيتهما: إذ افتتحت سورة الفيل ببنية استفهامية، لتتلوها سورة قريش فتجيب على ذلك الاستفهام بافتتاحها ببنية تعليلية، مع أنها جاءت لتعليل مضمون سورة الفيل عموما، كما خلصت الدراسة إلى تواشجهما خطابيا، من عدد من المحاور، من أبرزها توحد الموئل المكاني الذي يستوطن السورتين، وتقارب الخرائط الموقعية التي أطلت في نصهما، وكذلك توحد الأطراف الخطابية فيهما، وإن تعاورت الأطراف في تلك الأدوار، ولاسيما بين أطراف التلقي المندمجة في نص السورتين، فحين يحتل طرف أصحاب الفيل الطرف المحوري في سورة الفيل، تحتل قريش ذلك الموقع في سورة قريش، وإذا جاءت سورة الفيل لتحكي الرحلة العدوانية لأصحاب الفيل، جاءت سورة قريش لتحكي الرحلة التموينية لقريش، وحين جاءت سورة الفيل لتظهر قوة المولى في إهلاك المعتدين على حرماته، الصادّين عن سبيل بيته، جاءت سورة قريش لتجلو بديع إمداده وحمايته لرعاة حرمه، القائمين على أمر بيته، طالما وتوجهوا إليه بالعبادة، كما تشترك السورتان في موضوعهما الخطابي، بل يتعاوران في تناول أجزائه ويكملان بعضهما فيه، إذ عرضت سورة الفيل نموذجًا عمليًّا لحماية الله للموئل القرشي، في حين تطرقت سورة قريش للواجب المناط بالعصبة القرشية إزاءه تعالى، مقابل ما تكفل به لهم من مقومي الغذاء والأمان، مع التعريض بموقع الأطراف الأخرى في المعادلة التي توافرت عليها السورتان، كما توصلت الدراسة إلى أن تخصيص قريش بالأمر بالعبادة في سورة قريش ليس لأن هذا التكليف خاص بهم، وإنما لما لامتثال قريش به من أهمية في بلورة المعادلة الغذائية والأمنية للموئل المكي، بالإضافة إلى جعل ذلك تعليلا لما جرى في حادثة الفيل التي تضمنتها سورة الفيل، وتأسيسا للوضع الجديد الذي تشكل بعد نزول الرسالة القرآنية، وتسويغا لتخويل قريش المكانة اللائقة بها، كونها القائمة على شأن البيت الذي ربط الأمر به.

وعلى الرغم من الترابط القائم بين السورتين، إلا أن كل سورة منهما لها طابعها الخاص بها، والنفَس الدلالي المميز لها، مما يبعد احتمال ما قيل عن أنهما سورة واحدة، وقد أنيط على تجاورهما النصي في البوح بالترابط الموضوعي والخطابي القائم بينهما، وهو ما يرجح القول بأن الترتيب المصحفي ليس مسألة تواضعية. وإنما هو أمر توقيفي لا مرية فيه.

المراجع:

1) أحمد المتوكل ، مسائل النحو العربي في قضايا نحو الخطاب الوظيفي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2009م.

2) أحمد مداس، لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، عالم الكتب الحديث؛ جدارا للكتاب العالمي، الأردن، ط1، 2007م.

3) الأزهر الزناد ، نسيج النص بحث في مايكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1993م.

4) بول ريكور، نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى، ت: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 2006م.

5) تمام حسان، اجتهادات لغوية، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1428هـ/ 2007م.

6) تمام حسان، البيان في روائع القرآن، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1420هـ/ 2000م.
7) جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، ط1، 1403هـ.
8) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، ضبط: هيثم طعيمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1423هـ/ 2002م.
9) روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 2007م.
10) زتسيسلاف واورزيناك، مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، ت: سعيد البحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1424هـ/ 2003م.
11) عبدالجليل منقور، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001م.
12) عبدالمتعال الصعيدي، النظم الفني في القرآن، مكتبة الآداب، القاهرة، 1413هـ/1992م.
13) فضل الله قطران، سمات البنى الخطابية في القرآن الكريم في ضوء علم لغة النص، أطروحة دكتوراه، جامعة صنعاء ، كلية الآداب، 2013م.
14) القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، ت: محمد إبراهيم الحفناوي ومحمود حامد عثمان، دار الحديث، القاهرة، ط2، 1416هـ/ 1996م.
15) محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
16) محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، المغرب، الدار البيضاء، ط2، 2006م.
17) محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط1، 1426هـ/ 2005م.
18) محمد مفتاح، التشابه والاختلاف نحو منهاجية شمولية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء؛ بيروت، ط1، 1996م.
19) محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ضبط: علي عبدالباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ/ 1994م.
20) مكي بن أبي طالب القيسي، مشكل إعراب القرآن، ت: حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1405هـ/ 1984م.
21) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ط).
22) نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب دراسة معجمية، عالم الكتب الحديث ، جدارا للكتاب العالمي، عمان، ط1، 1429هـ/2009م.
23) دورية جذور التراث، النادي الأدبي الثقافي، جدة، العدد 25، شعبان 1428هـ/أغسطس 2007م.